الياس خوري

بلاغة الصمت الفلسطيني

الجيل الفلسطيني الجديد يذهب إلى مواجهة لا لغة لها في سياقات هبّة السكاكين. هذا الجيل ليس يائساً من الحياة، أو من النضال، لكنه يائس من اللغة؛ اكتشف بلاغة الصمت وأسراره، فقرر كتابة حكايته مجدداً بلغة يعجز المحتل عن فك رموزها.

لم يجد صبحي أبو خليفة ما يقوله، فابتسم. الشاب الفلسطيني (١٩ عاماً)، الذي يقيم في مخيم شعفاط، وقف حائراً وسط الجنود الإسرائيليين والصحافيين بعدما قام بطعن مستوطنين إسرائيليين بالسكين في ٨ تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠١٥، وعندما سُئل عن هدف عمليته، اكتفى بالابتسام.

صَمْت الشاب حمل دلالات / أسئلة متعددة: هل كان سعيداً لأنه لم يُقتل؟ أم كان مذهولاً أمام نجاح عمليته؟ هل كانت ابتسامة سخرية؟ أم ابتسامة ظفر؟ أم مزيجاً منهما؟ وممَّ كان الفتى الفلسطيني يسخر؟ وكيف يشعر بالظفر مَن يعرف أنه سيقضي بقية أيامه في غياهب السجون الإسرائيلية؟

ابتسامة محيرة وملأى بالأسئلة، لكنها تعلن نهاية الكلام. هل شعر الفتى بأن الكلام لم يعد قادراً على التعبير عن مشاعره؟ هل مات الكلام القديم، فأحس صبحي أبو خليفة بأنه لم يعد قادراً على مضغ جثث الكلمات؟

صبحي أبو خليفة بقي حياً فابتسم صامتاً قبل أن يختفي، غير أن عشرات الشبان والشابات الذين قضوا وهم يحملون السكاكين، ماتوا أيضاً صامتين.

العبارة التي افتتح بها معتز حجازي مرحلة هذا الصمت الفلسطيني الطويل تحمل دلالات هذا المنعطف. تقدم معتز من رجل طويل أشقر اللحية وسأله: "هل أنت الحاخام يهودا كليغ؟" وبعدما سمع جواب الحاخام الإيجابي قال: "متأسف أنا مضطر إلى فعل ذلك"، وأطلق النار. وبعدما أنهى مهمته ركب معتز حجازي دراجته النارية وذهب إلى منزله، وهو يعرف أنه سيُقتل هناك.

كان ذلك في ٢٩ تشرين الأول / أكتوبر ٢٠١٤. صمْت صبحي أبو خليفة وابتسامته

جاءا بعد عام من اعتذار معتز حجازي. معتز اعتذر باسم الصامتين جميعاً، فبعد هذا الاعتذار صار الكلام بلا معنى. لم يعتذر الشاب الفلسطيني الذي يشبه بطل رواية لم تُكتب عن الفعل الذي كان يستعد للقيام به، وإنما اعتذر عن الاضطرار إلى القتل. لم يتكلم كالضحايا، بل كالأبطال، فالبطل يعرف أنه سيدفع ثمن عمله، والبطل افترض أنه من أجل قتل العنصرية التي هي الاسم الآخر للاحتلال، لا بد من قتل الحاخام الذي أدى دوراً أساسياً في الحشد العنصري من أجل احتلال الأقصى وبناء الهيكل الثالث.

لم يفلسف معتز عمليته أو يضعها في سياق اللغة الفلسطينية الرائجة، اعتذر عن الاضطرار إلى الفعل وليس عن الفعل، مثلما لم يجد صبحي أبو خليفة ما يقوله، فابتسم. الأول اعتذر، والثاني صمت مبتسماً. فالحكاية الفلسطينية الجديدة تدور في هذا الالتباس الذي يصنعه الاعتذار ويتشكّل في الصمت.

لم يتوقف كثيرون أمام دلالات الاعتذار وآفاق الصمت. لقد أدخل شبان فلسطين لغة جديدة عصية على الترجمة. فالمقاومة كما تعرّفنا إليها في الزمن القديم كانت فخراً، "لا تعتذر عمّا فعلت"، قال محمود درويش. لكن اعتذار معتز حجازي لم يأتِ لينقض الكلام القديم فحسب، بل ليفتتح مرحلة الصمت البليغ أيضاً.

الفلسطينيون يُقتلون ويُذلون ويستباحون بصمت، لذا كان فعلهم اليوم صامتاً ومحيراً للجميع.

حتى صورة داليا نصّار (غلاف العدد)، وهي تواجه الجندي الإسرائيلي في إحدى تظاهرات رام الله، يمكن وضعها في إطار الصمت هذا؛ فالرصاصة التي استقرت على بعد أقل من ملمتر واحد عن قلبها بعد أيام من التقاط هذه الصورة، جاءت لتؤكد أن فلسطين تبحث عن مراياها في مناضلاتها ومناضليها.

لا أسعى للدفاع عن هبّة السكاكين، وما يرافقها، فهبّة بلا قيادة ولا ناطقين باسمها لا تحتاج إلى مَن يدافع عنها أو يبررها. إنها ظاهرة عفوية تكتب حكايتها بحبر ممحوّ، وسط عتمة الكلمات التي لا تقال، وهي تحتاج إلى قراءة وفهم.

كيف نقرأ الممحوّ، وندخل في العماء التاريخي الذي يحاصرنا؟ هل التاريخ أعمى؟ أم نحن عاجزون عن الرؤية؟

جيل جديد في القدس والخليل وبقية أنحاء الضفة الفلسطينية يذهب إلى مواجهة لا لغة لها. نحن في زمن الاشتباك، في لحظة تشبه لقاء حامد بالجندي الإسرائيلي في الصحراء، في رواية "ما تبقّى لكم" لغسان كنفاني. لا لغة سوى لغة الموت، بعدما استحال الكلام، أو صار عبثاً وتحوّل إلى عبء. هذا الجيل ليس يائساً من الحياة أو من النضال، لكنه يائس من اللغة.

صمت اللغة اليوم يذكّرنا بصمتها في حرب النكبة في سنة ١٩٤٨. يومها عاش الشعب مآسيه في وديان الصمت.

صمت اليوم يستعيد ذلك الصمت لكنه يختلف عنه. صمت الأمس كان عجزاً تخللته المهانة والخجل، أمّا صمت اليوم فموقف. اكتشف الفلسطينيون والفلسطينيات بلاغة الصمت وأسراره، فلاذوا به، وقرروا كتابة حكايتهم من جديد بحبر ممحوّ يعجز المحتل عن فك رموزه.

هذا الصمت مكتوب بحبر التضحية والموت. وهو عمل سياسي أولاً. لنقل إنه سياسة تنقض السياسة السائدة وتؤشر إلى بدائلها، لكن هذا النقض والتأشير هما في مرحلة جنينية، ولم يصلا بعد إلى القدرة على صوغ لغة بديلة.

سأحاول قراءة هذا الصمت بلغة الزمن

الذي سبقه، إذ علينا ونحن نشهد موت لغة الماضي، أن نساهم في قتلها، كي يولد من ركامها كلام جديد اغتسل بالفعل، وتشكل في الممارسة.

جرت محاولات عديدة لتفسير وقائع الهبّة الفلسطينية، وظاهرة انفصالها عن جميع الخطابات الفلسطينية السائدة. خطاب السلطة والمفاوضات والدولتين لم يعد قابلاً للحياة، وخطاب المقاومة بصيغته الإسلاموية لم يعد يعبّر عن مجاري الوقائع واتجاهاته. فالكلام صار يشبه الصدى، وغابة الأصداء الفلسطينية هي جزء من هذا الضياع السياسي الشامل الذي تعيشه العرب. صار المشرق العربي ساحة صراع دولية وإقليمية، وخرج العرب من المعادلة. صاروا ملعباً، ولم يعودوا لاعباً حتى في ملعبهم.

الكلام عن الملعب العربي لا يهدف إلى تبرئة اللاعب الفلسطيني الذي اختفى عن الخريطة السياسية. التبرئة والاتهام صارا بلا معنى، لأن الوقائع تجاوزتهما. فالنقد ليس وسيلة تعبير فقط، بل إنه يحمل في ثناياه البدائل، وحين لا تكون البدائل جزءاً من القاموس، يصير النقد نافلاً وبلا جدوى.

قراءة الصمت تنطلق من مشكلة حاجة القاموس إلى كلمات جديدة لا تزال غير متوفرة. والكلمة ليست اجتماع أحرف ينتج صوتاً، وإنما هي فعل ينتج المعنى. هذا هو الموضوع اليوم الذي تشير إليه الهبّة الشعبية الفلسطينية.

السؤال ليس موجهاً إلى المناضلين والشهداء والأسرى، وهو ليس سؤالاً موجهاً إلى الشكل العنيف الذي تتخذه المواجهات اليوم، حيث يذهب الشبان والشابات إلى موتهم بهدوء شجاعة تشبه اليأس، وإنما هو موجّه إلى الفكر والثقافة في فلسطين والعالم العربي.

أعتقد أن الصمت هو أعلى درجات العنف الذي يمكن للغة أن تصل إليه في ظروف القسوة التي تعيشها فلسطين تحت الاحتلال. عنف الصمت يتحول إلى عنف مادي بلا أفق سياسي واضح، وهو يمتحن أخلاق الضحية حتى حين يتحدى لاأخلاقية الاحتلال ووحشيته وجنون المستوطنين الذين يحتمون بحراب "جيش الدفاع".

يحمل هذا الصمت دلالتان كبريان:

الدلالة الأولى هي إعلان نهاية مرحلة تاريخية كاملة هي مرحلة اتفاق أوسلو والأطر السياسية والفكرية والتنظيمية التي أنتجها. لم يعد الاتفاق مدخلاً إلى دولة فلسطينية مجردة من السلاح، بل تحوّل إلى مسوّغ لابتلاع فلسطين بالاستيطان والقمع والمعازل. القراءة الفلسطينية لموازين القوى بعد أوسلو كانت خطأ، وأدت إلى تورّم البيروقراطية وتحطيم القوى السياسية وإقامة سلطة هجينة فاقدة للحول والحيلة.

مات أوسلو من زمان، وما تقوم به القيادات الفلسطينية يشبه مَن يحمل جثة على ظهره، ويحاول إقناع الناس بأنها لم تمت. لكن الجثة تتحلل والرائحة تزكم الأنوف، وهي تهدد حاملها بالموت. لكن حامل الجثة لا يريد دفنها، أو لا يستطيع ذلك، أو لا يزال يعتقد أن أعجوبة ما ستحييها.

الخطر ليس على حامل الجثة الذي يعلم أن زمنه انتهى، وإنما على الشعب الفلسطيني بأسره. ومن الطبيعي أن تدافع الحياة عن نفسها، وأن تدير الفلسطينيات والفلسطينيون ظهورهم للجثة وحاملها، وأن يبحثوا عن طريق جديد.

الدلالة الثانية تكمن في صعوبة البحث عن الطريق الذي ضاعت أجزاء كبيرة من معالمه. وهذا يذكّرنا بمرحلة الضياع التي أعقبت النكبة، والتي كان على الشعب

الضائع خلالها أن يبحث طويلاً وينتظر. وقد دام انتظاره حتى سنة ١٩٦٥، حين بدأت طلائعه المقاتلة في شق طريق الثورة.

حين نتحدث عن مرحلة انتظار دامت سبعة عشر عاماً، فنحن لا نقول سوى نصف الحقيقة. ففي ليل الانتظار الطويل لم يتوقف الناس عن الفعل، من مئات بل ألوف المتسللين الذين حاولوا العودة إلى قراهم، إلى عمليات فدائية غير منسقة ومنظمة، إلى المشاركة الفاعلة في حركات التغيير العربية وانقلاباتها.

نحن اليوم في صعوبة مشابهة، لكنها ليست صعوبة جامدة، بل هي صعوبة تبحث عن أشكالها ووسائلها وسط التوحّش الشامل الذي يعيشه الفلسطينيون في الشتات العربي، وفي أنحاء الوطن المحتل كافة.

غير أن الصعوبة اليوم تبدو أكثر قسوة من صعوبات ما بعد النكبة. وهذا يعود في الأساس إلى الانحلال العربي الشامل، والغرق في رمال الحروب الأهلية الذي أطاح باحتمالات الدور العربي في المرحلة الراهنة، وهي مرحلة تبدو طويلة للأسف.

تقودنا هاتان الدلالتان إلى حقيقة أن فلسطين تعيش اليوم لحظة فقدان لغتها السياسية. فالزمن القديم مات، والزمن الجديد لم يولد بعد. لذا لجأ المناضلون إلى الصمت، معلنين أن المقاومة ليست تعبيراً عن موقف سياسي فحسب، بل هي تعبير عن الحياة أيضاً. فوسط الإذلال المتمادي، وفي ظل هيمنة الممارسة العنصرية الاحتلالية، وحين يُحرق الأطفال حتى الموت، ويدمَّر الزرع وتُجرف البيوت وتتوسع المستعمرات ويعربد المستوطنون، فإن البقاء في قيد الحياة، والدفاع عن الحق في الوجود، لهما اسم واحد هو المقاومة.

الفلسطينيون يعطون المقاومة بعداً جديداً يتجاوز بعدها السياسي: تقاوم لأنك تعيش ولأنك لا تريد أن تموت. هذه هي المفارقة: تموت لأنك لا تريد أن تموت!

ما اصطُلح على تسميته "الهبّة" أو "هبّة السكاكين"، هو فعل موجّه نحو الذات قبل أن يكون موجهاً ضد الاحتلال. وهو يشبه في نيّاته تسلل الفلاحين إلى قراهم المدمرة بعد حرب النكبة في سنة ١٩٤٨، لكنه يفترق عنه في أنه يختزن تجربة أكثر مرارة مع المحتل. إنه ابن نكبة مستمرة منذ سبعة وستين عاماً. نكبة يتناوب على ممارستها اليسار واليمين الإسرائيليان. نكبة لا أفق لاحتمال نهايتها، لأن مَن يمارسها يعتقد أنه يمارس حقاً إلهياً، ويعيد إنتاج قيم أخلاقية صنعها الزمن الكولونيالي الذي يستعاد اليوم في جنون صعود اليمين الفاشي في أنحاء العالم كافة.

فعل موجه نحو الذات كي يوقظها من سباتها العميق، ومن تحميلها جثة وهم السلام. إنه يعلن بصمت نهاية المرحلة، ويمارس العنف معتذراً، ويتقدم كي يفتح الأفق المغلق بالممارسة.

طليعة المرحلة الجديدة تتميز بأنها ليست طليعية بالمعنى القديم. فهي لا تحمل مشروعاً جاهزاً أو أيديولوجيا مقفلة. تقول للناس أن يفتحوا أعينهم ويبدأوا باستخلاص الدروس.

تعالوا نحاول أن نستمع إلى ما يقوله صمت الضحايا / الأبطال.

اجتهادي الشخصي أنه يقول إن الانسحاب الإسرائيلي من الأراضي المحتلة منذ سنة ١٩٦٧ ليس جزءاً من القاموس الإسرائيلي. فالأرض كي ينزاح عنها كابوس الاحتلال تحتاج إلى حرب. حرب تشرين الأول / أكتوبر لم تكن كافية لأنها كانت نصف انتصار يخفي نصف هزيمة. وبدلاً من أن يقوم النظام العربي بتظهير نصف الانتصار، ارتضى لنفسه "سلاماً"

قائماً على نصف هزيمته التي تحولت إلى هزيمة سياسية كاملة. المفاوضات لا تغير موازين القوى، بل تعبّر عنها. المفاوضات الفلسطينية ـ الإسرائيلية كانت عُقماً وعَلقماً، والمفاوض الفلسطيني لا يمتلك القوة التي تؤهله للتفاوض، كما أن رديفه العربي الافتراضي لم يكتفِ بالانسحاب من أرض المعركة، وإنما انهار في بلاده.

نحن أمام احتلال طويل يؤسس لنظام أبارتهايد معلن وجليّ في وقاحته. ومقاومة هذا الاحتلال تتطلب رؤية جديدة، واجتراح أدوات نضالية ملائمة.

مواجهة نظام التمييز العنصري الإسرائيلي بدأت بصمت، وهي تتبلور ببطء في ساحات المواجهة اليومية، وتتخذ لنفسها اسماً واحداً هو الصمود.

ما يجري هو تمرين على الصمود. شبان فلسطين وشاباتها يتعلمون فنون الصمود بالتجربة، وهو صمود صعب ومرير وقاس. شعب يواجه آلة قمع منظمة مجرداً من أيّ دعم. سلطته لا تحميه، والمشرق العربي غارق في كوابيسه، والعالم لا يبالي، لكنه يعرف أن ساحات مواجهته في هذا الظرف الصعب هي التي ستقرر مصيره، ولذلك فإنه لا يملك سوى خيار واحد اسمه المقاومة بالصمود.

هذه الهبّة لا ترفع مطالب محددة كما حدث في الانتفاضة الأولى، مطلبها هو رسالتها إلى الفلسطينيين أن زمن الركود والمفاوضات انتهى إلى كارثة. كسر الجمود هو رسالة من أجل تأسيس وحدة وطنية جديدة تقوم في أرض المعركة وليس في كواليس النظام العربي، ومن أجل استعادة فكرة الحق الفلسطيني وتحويله إلى مشروع سياسي. لقد فشلت جميع محاولات علاج المرض الصهيوني الذي يجتاح فلسطين، وثبت أنه لا حل مع المشروع الكولونيالي الصهيوني، لكن أيضاً لا حل مع فكرة عربية غائمة تتأرجح بين الأصولية والفكر القومي التقليدي البليد. الأفق هو تحطيم نظام الفصل العنصري الذي هو جزء عضوي من الفكرة الصهيونية، والبحث عن حل ديمقراطي يعيد الحق إلى أصحابه من جهة، ويقدم من جهة أُخرى أفقاً ديمقراطياً لليهود في فلسطين في أفق ديمقراطي ثنائي القومية يحرر الجلاد من عنصريته التي لن تقوده إلاّ إلى الخراب.

شرط استعادة فكرة الحق الفلسطيني هو الصمود والمقاومة. وما قامت وتقوم به الهبّة الفلسطينية هو إعادة تأسيس هذا الحق، عبر تحويل التحرر الوطني الفلسطيني إلى أفق للتحرر من العنصرية والطائفية، وإلى مشروع إنساني يكسر حلقة الرعب التي يصنعها صراع الهمجيات على الأرض العربية.

فلسطين في صمتها تعلن بلاغة الحق، وتؤسس للمعنى الإنساني الذي تحمله الضحية. ■